

العنوان:	تصورات الأمة المعاصرة : دراسة تحليلية لمفاهيم الأمة في الفكر العربي الحديث و المعاصر
المصدر:	المستقبل العربي (لبنان)
المؤلف الرئيسي:	نصار، ناصيف
مؤلفين آخرين:	بشور، معذ(عارض)
المجلد/العدد:	مج18, ع198
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1995
الشهر:	أغسطس
الصفحات:	122 - 127
رقم MD:	714337
نوع المحتوى:	عروض كتب
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	نقد الكتب، نصار، ناصيف، الفكر العربي، العصر الحديث، الأمة العربية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/714337

ناصر ناصيف

تصورات الأمة المعاصرة: دراسة تحليلية لمفاهيم الأمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر (*)

ط ٢ مصححة (بيروت: دار أمواج، ١٩٩٤)، ٥٦٠ ص.
(مكتبة الفكر الاجتماعي)

معن بشور

رئيس تحرير مجلة
«المنابر» - لبنان.

العربي، إذ يقول مجاهد ريفي جزائري من أصول بربرية للصحافي اللبناني فيصل جلول: «كنت أمسك بالترانزستور عدة ساعات وأنا أستمع إلى خطاب جمال عبد الناصر، ومن الطريف أن ندرك أن هذا المجاهد القبائلي لم يكن يعرف اللغة العربية، ولم يكن يفهم كلمة من تلك الخطب ومع ذلك يصبر على سماعها. وتعرفون العبارة الشهيرة للمفكر الجزائري مالك بن نبي الذي كان يقول إن اللغة الفرنسية التي كان يكتب بها هي المنفى الذي يعيش فيه.

وبالأمس، وقبل أقل من أسبوعين، نشرت مجلة روز اليوسف المصرية في عددها الصادر في ٢٧ آذار/مارس الماضي خبراً مفاده أن نائب الرئيس الأمريكي آل غور حرص إبان زيارته الأخيرة لمصر أن يلتقي بأطفال السلام، وهم بعض أطفال مصر الذين حضروا مع أطفال فلسطينيين واسرائيليين حفلة توقيع إعلان المبادئ في واشنطن بين رئيس منظمة التحرير

في أحد أيام آب/أغسطس ١٩٥٦، وإثر نداء وجهته لجنة الاتصال الشعبي التي كان يرأسها حميد فرنجية، والتي كانت تضم أحزاباً وشخصيات عربية، نفذ العديد من العواصم والمدن العربية إضراباً تضامنياً مع موقف الحكومة المصرية بعد تأميم قناة السويس وبوجه التهديدات البريطانية والفرنسية عشية حرب السويس...

يومها كتبت جريدة لوموند الفرنسية المعروفة تقول: «لنا أردت أن تعرف حدود القومية العربية فما عليك إلا أن ترسمها على حدود الدول والعواصم التي لبّت دعوة لجنة الاتصال الشعبي ورئيسها حميد فرنجية إلى الاضراب وتظاهر أبناءها دعماً لمصر».

كانت حدود القومية العربية آنذاك مهمة لفرنسا، حكومة ورأياً عاماً، وخصوصاً أن حركة التضامن الشعبي العربي مع الثورة الجزائرية كانت تملأ المدن والقرى العربية، فيما كان الجزائريون مشدودين إلى عمقهم

(*) في الأصل مداخلة في مناقشة كتاب ناصر ناصيف، تصورات الأمة المعاصرة، في الحركة الثقافية - انطلياس بتاريخ ٦ نيسان/أبريل ١٩٩٥.

الصحف مؤخراً عن تحرك قامت به الحكومة السورية احتجاجاً على الاجتياح التركي لشمال العراق، وبين الحكومتين ما بينهما، ذلك أن الدفاع عن وحدة العراق كبلد عربي شقيق وعن سلامة أراضيه وسيادته أمر، والعلاقة مع النظام أمر آخر..

وحين فتحتُ عيني صبيحة هذا اليوم فاجأتني مقابلة أجرتها جريدة السفير مع جان بيار شوفنمان، وزير الدفاع الفرنسي السابق، حول كتابه الجديد: الأخضر والأسود، أصولية، نفظ دولار، يقول: لو كنت عربياً لما كنت بعيداً عن القومية العربية.

- ١ -

وجدتُ نفسي أستحضر هذه الوقائع المتناثرة والموزعة بين أزمان مختلفة، وأمكنته متباعدة، وظروف متنوعة، بعد أيام أمضيتها في قراءة الكتاب الشيق لـ ناصيف نصار حول تصورات الأمة المعاصرة، تماماً كمن يتحسس أطرافه وجده بعد موجة قصف عنيفة ليتأكد من أنه ما زال حياً، وأنه بكل أطرافه بخير.

لعل أسلوب نصار التحليلي الصارم، وأطلاعه الشمولي على موضوع الكتاب، ومنهجه في التفكيك والتركيب، منتقلاً من موقع إلى آخر، ومن مفكر إلى ثان، هو الذي ذكرني بأيام القصف، وإن كان هذا القصف فكرياً وممنهجاً لا عشوائياً هذه المرة.

لكن أيها الأخوة، اعذروا من كان مثلي قومياً عربياً وما زال، مؤمناً بوجود أمة عربية واحدة ممتدة من المحيط إلى الخليج، وبقي متمسكاً بأهداب هذا الإيمان، على رغم كل ما حل بنا من كوارث ومحن، في أن يشعر بالحاجة بالفعل إلى الاطمئنان إلى وجود أمته العربية بعد قراءته هذا الكتاب، الذي حصر كل التصورات القومية العربية في باب التصورات اللغوية وإن لم يبخل

الفلسطينية ورئيس الحكومة الاسرائيلية.

وكان غور في حرصه هذا يريد أن يعبر عن اهتمام خاص بـ «بذرة السلام» هذه - وهو الاسم الذي أطلق على هؤلاء الأطفال. وقد تولى موظف أمريكي كبير - بحسب روز اليوسف - مهمة ترتيب هذا اللقاء بكل تفاصيله إلا تفصيلاً بسيطاً وهو الاطلاع على الكلمة التي سيلقيها أحد أطفال السلام هؤلاء في حضرة نائب الرئيس الأمريكي.

قد لا يكون الموظف الأمريكي رأى أهمية في إطلاعه على الكلمة، فهي لن تخرج عن مثيلاتها في هذه المناسبة، وربما كان مطمئناً إلى فحواها، والطفل المنتدب لهذه المهمة هو نجل منصور حسن، وزير الإعلام في عهد السادات، وبالتالي في محيط بيئة رائدة في ما يسمى بعملية «السلام مع اسرائيل».

لكن حصل ما لم يكن في الحسبان، فعمر منصور حسن ألقى بالفعل كلمة، ولكنها كلمة مفاجئة بكل المعاني.. وقف الطفل يقول مخاطباً نائب الرئيس الأمريكي: نحن أطفال مصر، نريد منكم أمرين: الأول هو أن ترفعوا أيديكم عن أطفال العراق، إذ ما ذنب هؤلاء يدفعون ثمن خطأ ارتكبه حاكم بلدهم، فهم مثلنا ومثل أولادكم، أطفال يحتاجون إلى الغذاء والدواء.. والأمر الثاني هو أن توقفوا انحيازكم لـ «إسرائيل» وأن تعاملوها على قدم المساواة مع دول المنطقة الأخرى.

طبعاً أكفهر وجه السياسي الأمريكي المعروف برصانته وتطلع صوب الموظف الأمريكي المسؤول معاتباً.. وانتهى اللقاء.

لكن موقف شعب مصر من التطبيع مع «إسرائيل» بقي يعبر عن نفسه كل يوم، كان آخرها اعتقال العشرات من شباب مصر الناصريين والوطنيين والليبراليين بسبب تحركهم ضد مشاركة إسرائيل في سوق القاهرة الدولي.

ولا أعتقد أن أحداً منا لم يقرأ في

- ٢ -

لا شك في أن الكتاب مفيد، ومفيد جداً لكل من يرغب في الاطلاع على كيفية تناول مختلف المدارس العقائدية والفكرية لمفهوم الأمة، لكن الكتاب يشكو في نظري من شائبتين:

الشائبة الأولى تتصل بالطريقة التي اعتمدها المؤلف في تصنيف الأفكار والمفاهيم والتصورات، فوقع في المحاذير التي يشكو منها عادة كل تصنيف يستهدف التبسيط بهدف الإيضاح، فيخسر الدقة التي تحتاج إليها دراسة الخصوصيات.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان يمكن للباحث أن يرى في فكر حسن البنا الإسلامي وميشيل عفلق القومي تقارباً وانتماءً لمناخ فكري متشابه في نظريته إلى العلاقة بين العروبة والإسلام ولو من جهتين مختلفتين، أكثر من أن يرى تقارباً مثلاً بين فكر الرائد الإسلامي الأول وفكر بعض غلاة المفكرين الإسلاميين الذين يرون في القومية كفراً، وفي العروبة انتقاصاً من رابطة الإسلام، أو بين فكر ذاك المفكر البعثي وبين العديد من المفكرين القوميين الذين أنكروا أي دور إيجابي للدين عموماً، وللإسلام خصوصاً، في تكوين الأمة العربية، أو تعاملوا معه بشكل سطحي، أو تبّنوا النظريات الماركسية التقليدية منه.

وبهذا المعنى، فالتصنيف الأفضل في نظري (إذا كان لا بد من تصنيف)، هو الذي يركز على وجود نوعين من التصور للأمة: الأول هو التصور المغلق الذي يضع لمفهوم الأمة مجموعة حدود وشروط وضوابط ويرفض الخروج منها، والآخر هو التصور المنفتح لمفهوم الأمة الذي يسمح لها أن تستوعب في الماضي، كما في الحاضر والمستقبل، جملة خصوصيات وتلاوين وتصورات...

في التصور المغلق كان يمكننا أن نلاحظ

عليها بإضافات من نوع تصور لغوي بسيط، أو ميتافيزيقي، أو تاريخي، أو عصري أو سياسي.

العروبة إذناً تتحول إلى ظاهرة لغوية. وهذا بالطبع أفضل من تحولها إلى ظاهرة صوتية كما كان الأمر مع الكاتب السعودي عبدالله القصيمي.

بالفعل لست أدري ما الذي جعلني أحس وأنا أقرأ فصول هذا الكتاب، وكأن مؤلفه محكوم منذ مقدمته حتى الخاتمة بفكرة مسبقة تكونت لديه منذ تفتح وعيه السياسي والثقافي، فاقامت بينه وبين مدارس فكرية وسياسية مهمة حواجز نفسية وفكرية، وسعى، وما زال، يسعى حديثاً لإظهار بطلان مقولاتها أو لدحض نظرياتها.

بل لست أدري ما الذي جعلني أحس أيضاً وأنا أقرأ هذا الكتاب، وهو الجامع بموضوعاته، والعلمي بمنهجه، والجاد بأبحاثه، والحديث بخطابه، أنني أمام ذلك النوع من النقاش القديم، والسجال العقائدي المزمّن، الذي كان يقوم بين القوميين العرب والقوميين السوريين والقوميين اللبنانيين، بل بينهم وبين الإسلاميين والماركسيين، وهو سجال نصي بحث تتداخل فيه صراعات النفوذ الحزبي والفئوي التي تضر، وأحياناً ترث، صراعات تقليدية داخل العائلات والقبائل والطوائف في مدننا وقرانا، مع صراعات بعض المثقفين والسياسيين المتنافرين الذين يهرع كل منهم إلى أيديولوجيا أو حزب يتسلح بهما بوجه الآخر. مناخ قديم قد يعود زمنياً حتى إلى ما قبل وجود صراع على مستوى العالم بين الاتحاد السوفياتي وأمريكا، إذ إنه - كما نذكر جميعاً - خلق حين وجد درجة معينة من التداخل والتفاعل بين الحركات والتطلعات الوطنية تجاوزت قفص الصراع الكلامي المترمّت حول موضوعة الهويات.

العنصري» (بحسب الكاتب) لم يحصر مفهومه للأمة باللغة أو بالجنس والعنصر، بل ركز على النزعة أو المطامح (ص ٢٣٢)، فيما أكد عمر فاخوري (الذي وضعه الكاتب في الخانة ذاتها، أو خانة التصور اللغوي العنصري) أن اللغة هي أسس مظاهر القوميات لكنها ليست كافية، في حين شدد صلاح الدين القاسمي على الصلة بين القومية والضرورات الاجتماعية المتطورة، ومع ذلك، لم يخرج عند المؤلف من خانة أصحاب التصور اللغوي العنصري.

وحسين المرصفي الذي تحدث عن ثلاثة عناصر لتكريس الأمة هي «اللسان والمكان والدين»، بقي في «خانة أصحاب التصور اللغوي الخالص».

ويتضح الضعف في هذا النوع من التصنيف بشكل خاص حين يتناول المدرستين الرئيسيتين في الحركة القومية العربية المعاصرة، أي البعث وعبد الناصر...

فمفهوم الأمة لدى هاتين المدرستين، بحسب الكاتب، ينحصر في إطار التصور (اللغوي السياسي)، بينما الصفحات القليلة التي خصصها للحديث عن هاتين المدرستين كشفت بوضوح عن جوانب أخرى تتصل بنظرة هاتين المدرستين إلى الأمة.

فدستور البعث الذي أعلن عام ١٩٤٧، وبحسب النصوص التي أوردها الكاتب (الصفحة ٣٠٥) اعتبر الأمة وحدة سياسية اقتصادية، كما اعتبرها وحدة روحية وثقافية، ورأى أنه لا يمكن أي قطر من أقطارها أن يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر. وبغض النظر عن مدى صحة التحليل الذي أورده الكاتب عن تداخل كيان بين الأمة والدولة في التصور البعثي، إلا أن هذه النظرة إلى الأمة كوحدة سياسية اقتصادية وروحية وثقافية، والتي عبّر عنها العديد من أدبيات البعث ومقرراته، كما عبّرت عنها الأدبيات الناصرية، وخطب جمال عبد الناصر، والميثاق، تظهر من دون ريب،

مفكرين إسلاميين وقوميين وإقليميين، وفي إطاره يمكننا أن نفهم تلك المحاولات التي تركز على جانب واحد، كالدين أو اللغة أو التاريخ أو العادات والتقاليد أو النزعات والمطامح، أو الاقتصاد، أو الإقليم الطبيعي، فيجد، آنذاك، في دراساتها تلك، إثراء للفكر السياسي العربي لأنها وإن أخطأت الشمولية في النظرة، لكنها ستساعد في إبراز الجزئي أو الخاص وتوضيح ملامحه بدقة.

أما في التصور المنفتح لمفهوم الأمة، فيمكننا أن نقرأ أيضاً لمفكرين من مختلف المدارس، أدركوا أهمية الترابط بين مجموعة العوامل والعناصر التي تسهم في تأسيس الأمم وإن تفاوتوا في إبراز أهمية عامل دون آخر.

ولعل مثل هذا التصنيف، بين تصور مقفل وآخر منفتح، يساعدنا أكثر فأكثر في فهم ما يدور حولنا من تطورات فكرية وسياسية ترفض الانحباس في مقولات نظرية جامدة فتتداخل اللبنانية بالعروبة، وفق الشعاع الذي أطلقه المنتدى القومي العربي في لبنان الذي تأسس حديثاً: لبنان ضرورة عربية والعروبة حاجة لبنانية، وانفتاح السوريين القوميين بشكل أعمق، على العروبة وتأكيدهم على فهمهم المميز لها، واحترام القوميين العرب المعاصرين للحقيقة الوطنية واعتبارهم وحدات الاقطار الوطنية ضرورة قبل أي حديث عن الوحدة القومية، وتطور التلاقي بين العروبيين والإسلاميين، الذي جسده المؤتمر القومي - الإسلامي الذي انعقد في الخريف الفائت في بيروت، كلها تطورات لا يمكننا فهمها إلا إذا سلمنا بوجود بذور انفتاح كامنة في تصور العديد من التيارات الفكرية والعقائدية لمفهوم الأمة.

لقد أوقع التصنيف المعتمد الكاتب في أكثر من تناقض عبر النص، لأنه لاحظ أن مفكرين معينين وضعهم في خانة معينة، قد خرجوا على هذه الخانة، فعبد الغني العريسي المنتمي إلى التصور «اللغوي

العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، وعشر صفحات أخرى للتصور الناصري، فيما يخص فصلاً كاملاً لكتاب واحد هو كتاب شخصية مصر لجمال حمدان، وخصص أكثر من ٢٥ صفحة لـ «مؤلفات» نديم البيطار..

ولو انحصر عدم الانصاف في كتاب نصار بالكم فقط لهان الأمر، لكنه شمل النوع أيضاً، لأن مفهوم الأمة العربية الذي بنى على أساسه البعث وعيد الناصر حركتهما السياسية الواسعة في الحياة العربية المعاصرة، كان يحتاج إلى دراسة أعمق لإدراك عناصر القوة فيه، كما عناصر الضعف..

فحين يتجنب ميشيل عفلق «التفكير الطويل في البحث والتنقيب عن مقومات الأمة العربية»، فليس ذلك لضعف الاهتمام النظري لدى البعث بتعريف الأمة والقومية، بقدر ما كان نتيجة لنظرة البعث إلى القومية كوجود يعبر عن نفسه بمقومات وروابط مشتركة بين أقطار الأمة وأبنائها ويبرر وحدتها ووحدة نضالها ووحدة أهدافها.. بل أيضاً بقدر ما كان لحرص البعث على عدم الوقوع في فخ التفكير المجرد، وخوفه من إغلاق مفهوم الأمة على عناصر تمنعه من أن يستوعب جماعات وحضارات وخصوصيات في الماضي والحاضر والمستقبل.. «فالقومية العربية [حسب عفلق] هي قومية وعربية، قومية بمعنى أن فيها الشروط الابتدائية لكل قومية، وعربية بمعنى أن فيها التطور الخاص بالأمة العربية عبر مختلف العناصر والحضارات والأزمنة..»

إن مثل هذا المفهوم المتطور للقومية كهوية للأمة، هو الذي سمح للحركة القومية العربية المعاصرة أن تستوعب - من الناحية النظرية على الأقل - العديد من الخصوصيات الكيانية والإثنية والدينية والاجتماعية. فالأمة العربية - هي وحدها من كل الأمم الإسلامية المجاورة - التي أقرت بالحقوق الثقافية للاكراد وأجازت قيام حكم ذاتي.

على الأقل، الخطأ الفادح في إدراج المفهوم البعثي والناصري للأمة في إطار التصور اللغوي السياسي.

إن مشكلة هذا النوع من القوالب الجامدة في التصنيف تذكّرنا بذلك الحوار الذي دار بين سياسي لبناني عملي وقانوني متمزمت حول معالجة مشكلة عملية تتصل بالمصلحة العامة، فالثاني يُصرّ على أن القانون يمنع حلّها، فيما يصرّ السياسي على أن المصلحة العامة تفرض هذا الحل... وهنا أطلق السياسي آخر رصاصاته في ذلك السجال قائلاً: إذا كان لديك طربوش صغير ورأس كبير، فهل تكبّر الطربوش أم تكسر الرأس...

أما الشائبة الثانية في الكتاب، فهي أنه تناول دفعة واحدة تصورات لمفكرين مجردين، ولمفكرين سياسيين، ولمفكرين حركيين، ولسياسيين تبنوا مذاهب فكرية، وفي قضية مهمة يتداخل فيها الفكر بالاستراتيجيا، والنظريات العقائدية بالتغيرات السياسية.

إن «جراب الكردي» هذا، الذي ظهر به كتابنا الضخم قد ظلم كل من تناوله مرتين، مرة حين حاول أن يقحم أفكاره ونظرياته في أحد تصنيفاته المسبقة، ومرة أخرى حين قرأ النصوص بمعزل عن الإطار الزمني والمكاني الذي ظهرت فيه.

إن مثل هذا المنهج المعتمد قد قاد الكاتب إلى اعتماد النص، والنص المتوفر لديه وحده، كأساس للتحليل، فتساوى لديه مفكر أكاديمي مع حركة سياسية بالغة التأثير في المنطقة، وأحياناً أفرد لنصوص هذا المفكر حيزاً يتجاوز بكثير الحيز الذي يُقرّد لمفاهيم حركة مهمة كالبعث، أو تيار كبير كالناصرية.

لقد خصص نصار عشر صفحات فقط في كتابه الذي يضم ٥٦٠ صفحة، للحديث عن مفهوم الأمة في تصور البعث الذي يُعتبر من دون شك من أبرز الحركات القومية

جغرافية مصطنعة تجعل من الكيان الصهيوني مركزاً لهذا النظام ومن البلدان العربية المحيطة مجرد ملحقات وأرياف...

إن المستهدف بالنظام الشرق أوسطي ليس الاقليم، لأنه نظام يقوم على فكرة الإقليم الجغرافي وليس الدين، أو لأن الدين عنصر أساسي في تكوين «إسرائيل»، بل النظام العربي والهوية القومية العربية هما المستهدفان أولاً وأساساً، فقد سبقت الإعلان عن مشروع الشرق أوسطي حملة عقائدية وسياسية هائلة لإنهاء القومية العربية عبر الهجوم عليها من كل المحاور، وبمختلف الأسلحة، ولعل أمضى هذه الأسلحة كان إسقاط بعض الأنظمة والأحزاب القومية في فخ الممارسات البعيدة كل البعد عن المضمون الديمقراطي والإنساني للحركة القومية.

ومن هنا، فإذا عجزت النظريات القومية عن تحديد تصور للأمة العربية لا يرضي المنظور التحليلي لناصيف نصار، فهذا لا يعني أبداً أن الأمة غير موجودة.

إنه قصور في التنظير للأمة، لكن حضور الأمة ما زال قوياً □

والأمة العربية - هي وحدها من بين الأمم الإسلامية - التي تضم بين صفوفها مسيحيين ويهوداً وتحرص على اعتبارهم مواطنين يتساوون في الحقوق والواجبات ويبرز من بينهم قادة ومفكرون وزعماء لعبوا، وما زالوا يلعبون، أدواراً مهمة في نهضتها وحياتها. والأمة العربية، بحسب هذا المفهوم، هي التي تجعل الفكر القومي الجديد يرى في مشكلة لبنان مع العروبة، مشكلة العروبة مع نفسها، أي مع تقدميتها وديمقراطيتها وقدرتها على التطور. بل إن الأمة بهذا المفهوم تسمح بأن يتطور الفكر القومي العربي على نحو يرى في القومية تكامل وطنيات لا إلغاء بعضها لحساب البعض الآخر، وفي العروبة تفهماً لخصوصيات لا دعوة إلى انكارها باسم التماثل القومي.

ولعل هذا المفهوم المرن للأمة العربية هو الذي جعلها على امتداد العقود الماضية، هدفاً دائماً لمشاريع ومخططات متعددة، آخرها النظام الشرق أوسطي، الذي يريد استبدال الهوية القومية العربية للمنطقة بهوية

صدر حديثاً

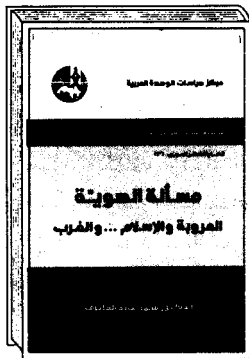
مسألة الهوية

العروبة والإسلام... والغرب

سلسلة الثقافة القومية (٢٧)

(قضايا الفكر العربي - ٣)

د. محمد عابد الجابري



١٩٧ صفحة

اللتمن: ٤ دولار

في هذا الكتاب، يتناول الجابري مسألة الهوية من جوانبها المختلفة. وأهمية الهوية تكمن في ارتباطها بوجود أمة تمتد من المحيط إلى الخليج، لذا يصرف الجابري تفكيره إلى ثنائية العروبة / الإسلام وعلاقتها بالوحدة القومية. كل ذلك بتحليل يتسم بالسلاسة وينحو إلى الترابط.